ذاكرة الآداب - ٨ -

كانت علاقة بدر شاكر السيّاب بـ**الآداب** علاقةً مضطربة، لم تستقرّ على حالٍ من الصفاء أو من الاعتكار. ولا يختلف اثنان في أنّ السيّاب هو من أبرز شعرائنا المحدثين، وأنّه طوّر القصيدة العربيّة الحديثة تطويراً كبيراً، مضموناً وصياغة. ولكنه كان في مواقفه السياسية شديدَ التذبذب، كثير التقلّب، حتى إنه كان ينتقل من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، وفقاً لـ«مزاجه» الخاصّ أو لحاجته الماديّة الصرف. ويكفي أن يطالع القارئ رسائله التي جمعها الكاتبُ العراقي ماجد السامرائي ليظهر له هذا السلوك المؤسف. فقد كان مع الشيوعيين ثم انقلب عليهم وكتب مذكّرات ضدّهم أراد بعضُهم استغلالها بترجمتها إلى الفرنسية، فوافق على ذلك ليقبض ما يعينُهُ على فقره. ثم دُعي إلى حضور مؤتمر للثقافة العربية أقامته «منظمة حرية الثقافة» في روما عام ١٩٦١، حيث ألقى محاضرة اعترف فيها بأنها جاءتْ مليئةً بأفكار تتّفق وأفكارَ «منظمة حرية الثقافة». ومن رسائله إلى يوسف الخال، يتّضح أن انقلابه على **الآداب** مرتبط بما بذل له يوسف الخال وسيمون جارجي من وعود بمساعدته مالياً والتوسّط لتشغيله وإشراكه في ترجمة الكتب. وقد ترجم بالفعل كتاباً عن الأدب الأميركي لدار فرانكلين وقبض عليه أجره. ومن مظاهر تذبذبه أنه حين طلب من عبد الكريم قاسم مالاً للمعالجة، حصل عليه، ولكنه انتظر حتى أطيح به ليهاجمه هجوماً عنيفاً.

ومن المعروف أن السيّاب بدأ مع مجلة **الآداب** بنشر قصائد وطنية قومية ملتزمة أعوام ١٩٥٤ و١٩٥٥ و١٩٥٦. وآخر قصيدة له في **الآداب** كانت بعنوان «رسالة من مقبرة» – تحية لنضال الجزائر. وحين صدرت مجلة **شعر** عام ١٩٥٦ مدّتْ للسيّاب يَدَ «المساعدة» طوال فترة مَرَضه. وأذكر هنا أن بعض «يقظة ضمير» – إذا صحّ وصفها بذلك... – عاودتْه عام ١٩٦٢، فأرسل إلى **الآداب** قصيدةً بعنوان «إلى العراق الثائر» نُشرتْ في العدد الثالث وهي معنونة من مستشفى سان ماري في لندن، وفيها يحيّي ثورة العراق على عبد الكريم قاسم. وفي العدد السادس من العام نفسه ١٩٦٢ نشرت **الآداب** قصيدة أخرى له بعنوان «ابن الشهيد» قدّم لها بقوله: «يسرّني أن يعود الولدُ الضالّ إلى بيته، وأن أعود إلى **الآداب** التي على صفحاتها متنفَّسي الطبيعيّ الذي أعاهد نفسي أن يدوم أبداً». غير أنّ الموت غيّب السيّاب بعد ذلك بفترة قصيرة.

في هذا الملفّ المخصّص للسيّاب، تنشر «ذاكرةُ **الآداب**» أكثر من قصيدة له، أشهرها «أنشودة المطر» التي نُشرتْ في المجلة (العدد السادس ١٩٥٤) قبل أن تصدر في ديوان يحمل العنوان نفسه.

سهيل ادريس

أنشودة المطر

من أيام الضياع في الكويت، على الخليج العربي

عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعة السحَرْ،
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر.
عيناك حين تبسمان تُورق الكرومْ
وترقص الأضواءُ .. كالأقمار في نَهَر
يرجُّه المجذاف وهناً ساعة السحر؛
كأنما تنبض في غوْريهما، النجوم ...

*

وتغرقان في ضباب من أسىً شفيفْ
كالبحر سرَّح اليدَين فوقه المساء،
دفءُ الشتاء فيه وارتعاشةُ الخريف،
والموت، والميلاد، والظلام، والضياء؛
فتستفيقُ، ملءَ روحي، رعشةُ البكاء
ونشوةٌ وحشيةٌ تعانق السماء
كنشوة الطفل إذا خاف من القمر!

*

كأن أقواس السحاب تشربُ الغيومْ
وقطرةً فقطرة تذوبُ في المطرْ ...
وكرْكرَ الأطفال في عرائش الكروم،
ودغدغت صمتَ العصافير على الشجر
أنشـودةُ المطر ...
مطرْ ...
مطر ...
مطر ...
تثاءب المساءُ، والغيوم ماتزالْ
تسحُّ ما تسحّ من دموعها الثقال
كأن طفلاً بات يهذي قبل ان ينام:
بأن أُمـه – التي أفاق منـذ عام
فلم يجدها، ثم حين لجّ في السؤال
قالوا له: «بعد غدٍ تعود ..» –
لا بد أن تعود
وإن تهامس الرفاق أنها هناكْ
في جانب التلّ تنام نومةَ اللُّحود
تسفُّ من ترابها وتشربُ المطر؛
كأنَّ صيَّاداً حزيناً يجمع الشِّباك
ويلعن المياه والقَدَرْ
وينثر الغناءَ حيث يأفل القمر.
مَطَرْ ...
مَطَرْ ...
أتعلمينَ أيّ حُزْنٍ يبعثُ المطر؟
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟
وكيف يشعر الوحيدُ فيه بالضياع؟
بلا انتهاء – كالدم المراق، كالجياع،
كالحبّ، كالأطفال، كالموتى – هو المطر!
ومقلتاكِ بـي تـطيـفـان مـع المطـر
وعَبْرَ أمواجِ الخليج تمسحُ البروقْ
سواحلَ العراق بالنجوم والمحار،
كـأنهـا تهـمُّ بالشـروق
فيسحب الليلُ عليها من دمٍ دثارْ.
أصيـح بالخليـج: «يا خليـجْ
يا واهبَ اللؤلؤ، والمحارِ والرَّدى!»
فيرجـع الصـدى
كـأنـه النشيـج:
« يـا خليـج
يا واهب المحـار والردى ..»

*

أكاد أسمـع العـراقَ يذْخرُ الـرعـود
ويخزنُ البروقَ في السهول والجبالْ،
حتى إذا ما فضّ عنها ختْمَها الرجالْ

لم تترك الرياح من ثمودْ
في الوادِ من أثرْ.
أكاد أسمع النخيلَ يشرب المطر
وأسمع القرى تئنُّ، والمهاجرين
يصارعون، بالمجاذيف وبالقلوع،
عواصفَ الخليج والرعودَ، منشدين:
«مَطرْ ...
مَطرْ ...
مَطرْ ...
وفي العراق جوعْ!
وينثر الغلالَ فيه موسمُ الحصادْ
لتشبعَ الغربان والجراد
وتطحنَ الشوانَ والحجرْ
رحىً تدور في الحقول ... حولها بشرْ!
مطر ...
مطر ...
مطر ...
وكم ذرفنا، ليلةَ الرحيل، من دموع
ثم اعتللنا – خوفَ أن نُلامَ – بالمطر ..
مطر ...
مطر ...
ومنذ أن كنا صغاراً، كانت السماء
تغيمُ في الشتاء
ويهطل المطر،
وكُلَّ عام – حين يُعشبُ الثرى – نجوع!
ما مرَّ عامٌ والعراقُ ليس فيه جوع.
مطر ...
مطر ...
مطر ...
في كلِّ قطرةٍ من المطر
حمراء أو صفراء من أجنّةِ الزَّهَرْ.
وكلُّ دمعةٍ من الجياع والعراه
وكلُّ قطرةٍ تراقُ من دم العبيد
فهي ابتسامٌ في انتظار مبسم جديد
أو حَلمةٌ تورّدتْ على فم الوليدْ
في عالم الغد الفتيِّ، واهب الحياة!

مَطرْ ...
مطر ...
مطر ...
سيُعشبُ العراقُ بالمطر ... »

*

أصيح بالخليج: «يا خليج ..
يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والردى!»
فيرجــع الصـدى
كأنه النشيج:
« يا خليــج
يا واهـب المحـار والـردى.»
وينثر الخليج، من هباته الكثارْ،
على الرمال: رغوَه الأجاجَ، والمحار
وما تبقّى من عظام بائسٍ غريق
من المهاجرين ظلَّ يشرب الردى
من لجة الخليج والقرار،
وفي العراق ألف أفعى تشرب الرحيق
من زهرةٍ يربُّها الفرات بالندى.
وأسمع الصدى
يرن في الخليج:
«مطر ..
مطر ..
مطر ..
في كل قطرة من المطرْ
حمراءُ أو صفراء من أجنّة الزَّهَر.
وكل دمعة من الجياع والعراه
وكل قطرة تراق من دم العبيد
فهي ابتسامٌ في انتظار مبسمٍ جديد
أو حَلمة تورّدت على فم الوليد
في عالم الغد الفتيِّ، واهبِ الحياة ..»

ويهطل المطر ..

بدر شاكر السياب
بغداد

يوم الطغاة الأخير

«أغنية ثائر عربي من تونس لرفيقته»

- «الى الملتقى ..»، وانطوى الموعدُ
وظلَّ الغدُ:
غدُ الثائرين القريبْ.
يداً بيدٍ، من غمار اللهيب
سنرقى إلى القمّةِ العاليه،
وشعرُكِ حقلٌ حباه المغيب
أزاهيرَه القانيه.

*

نرى الشمسَ تنأى وراء التلالْ
وبين الظلال،
وقد رفَّ، مثلَ الجناح الكسيرْ -
على كومةٍ من حطام القيودْ،
على عالمٍ بائدٍ لن يعود -
سناها الأخير.

*

تقولين لي: «هل رأيت النجومْ؟
أأبصرتها قبل هذا المساء
لها مثلُ هذا السّنا والنقـاء؟»
تقولين لي: «هل رأيتَ النجوم؟
وكم أشرقتْ قبل هذا المساء
على عالمٍ لطّخته الدماء:
دماءُ المساكينِ والأبرياء!»
تقولين لي: «هل رأيتَ النجوم
تُطلُّ على أرضنا وهي حرّه
لأوّل مرّه؟»
نعم. أمسِ حين التفتُّ إليكِ
تراءَيْنَ، كالهجْس، في مقلتيكِ.

*

وإذ يستضيءُ المدى بالحريقْ،
فيندكُّ سجنٌ، ويُجْلى طريق،
ويُذكي، بأطيافه الدافئه،
محيّاكِ باللهفة الهانئه؟
تقولين: «نحن ابتداءُ الطريق
ونحن الذين اعتصرنا الحياه:
من الصخر تدمى عليه الجباه
ويمتصُّ ريَّ الشفاه،
من الموت في موحشاتِ السجون؛
من البؤسِ، من خاويات البطون؛
لأجيالها الآتيه.
لنا الكوكبُ الطالعُ،
وصبحُ الغدِ الساطعُ،
وآصاله الزاهيه!»

بدر شاكر السياب

بغداد

ابن الشهيد

يسرّني أن يعود الولد الضال إلى بيته، وأن أعود إلى الآداب التي على صفحاتها متنفسي الطبيعي الذي أعاهد نفسي أن يدوم أبداً

بدر شاكر السيّاب

وتراجع الطوفان، لملم كل أذيال المياه
وتكشفت قمم التلال، سفوحها، وقرى السهول،
أكواخها وبيوتها خرِب تناثر في فلاه.
عركت نيوب الماء كل سقوفها، ومشى الذبول
فيما يحيط بهن من شجر ... فآه
آهٍ على بلدي، عراقي: أثمر الدم في الحقول
حسكاً، وخلّف جرحه التتري ندباً في ثراه.
يا للقبور كأنّ عاليها غدا سفلا وغار الى الظلام
مثل البذور تنام في ظلم الثمار ولا تفيق.
يتنفس الأحياء فيها كل وسوسة الرغام،
حتى يموتوا في دجاها مثلما اختنق الغريق.
جثث هنا، ودم هناك ..
وفي بيوت النمل مد من الجفون
سقف يقرمده النجيع، وفي الزوايا
صفر العظام من الحنايا.
ماذا تخلف في العراق سوى الكآبة والجنون؟
أرأيت أرملة الشهيد؟
الزوج مد عليه من ترب لحافاً ثم نام
متمدّداً بأشد ما تجد العظام
من فسحة: سكنت يداه على الأضالع،
والعيون
تغفو الى أبد الإله، إلى القيامة، في سلام.
رمت الرداء العسكري ونشّرته على الوصيد ...
لثمته، فانتفض القماش يرد برد الموت،
برد المظلمات من القبور.
يا فكرها عجباً .. ثقبت بنارك الأبد البعيد،
يا فكر شاعرة يفتش عن قوافٍ للقصيد
ماذا وجدت وراء أمسي وعبر يومك من دهور؟

«الثأر» يصرخ كل عرق، كل باب
في الدار. يا لفم تفتّح كالجحيم .. من الصخور،
من كل ردن في الرداء، من النوافذ والستور،
من عيني ابنك، يا شهيد، تسائلان، بلا جواب،
عنك الأسرة والدروب، وتسألان عن المصير،
مذ ألبسته الأم ثوبك في معاركك، الأثير
ويداه في الردنين ضائعتان، والصدر الصغير
في صدرك الأبوي عاصفة تغلف بالسحاب
ورنا الى المرآة
أبصر فيه شخصك في الثياب.
– «ابني كان أبوك نبعاً من لهيب، من حديد،
سوراً من الدم والرعود،
ورماه بالأجل العميلُ فخر – واهاً – كالشهاب،
لكن لمحاً منه شع وفض أختام الحدود
وأضاء وجه الفوضوي ينز بالدم والصديد
وكأن في أفق العروبة منه خيطاً من رغاب».
وتنفس الغد في اليتيم ومد في عينيه شمسه
فرأى القبور يهب موتاهن فوجاً بعد فوج
أكفانها هرئت ..
ولكن الذي فيها يضم اليه أمسه
ويصيح «يا للثأر ... يا للثأر ... »
يصدي كل فج
وترن أقبية المساجد والمآذن بالنداء .
وينام طفلك وهو يحلم بالمقابر والدماء.

بدر شاكر السياب
البصرة ٩ – ٣ – ٦٢